أدب التغافل

رياض المقيّد

رسائل الآداب

أَدَب التَّغافُل

رياض المقيَّد

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإني استمعت ذات مرة لمادة صوتية مسجّلة لأحد الفضلاء، يسرد على عجالة جملة من الفوائد المتفرقة؛ فكان مما شد انتباهي، ما ذكره منسوباً للإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، حين قِيل له إن عثمان بن زائدة يقول: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال -رحمه الله-:بل العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل[1].

أعجبتني تلك الفائدة حول أدب التغافل؛ فرُحت أمعن النظر وأتفكر في ذلك الأدب أياماً، فأدركت أهميته وضرورة التحلي به في تعامل الناس مع بعضهم البعض، وبحثت في كلام السلف والخلف، غير أن ما أثار دهشتي أني لم أقع على كتابٍ أو مصنفٍ ينفرد بالحديث عن أدب التغافل على أهميته البالغة؛ فآليت على نفسي أن أستعين بالله، وأدوِّن ما يقع نظري عليه حول ذلك الأدب بقدر ما ييسره المولى، فكانت هذه الرسالة المختصرة عن أدب التغافل، فما كان فيها من

(١) تهذيب الكمال، المجلد ١٩، ص ٣٧٠.

صـواب فمـن اللـه وحـده وبتوفيقـه، ومـا كان مـن خطـأ فمنـي، والحمـد للـه أولاً وآخـراً وظاهـراً وباطنـاً.

فضل التغافل

أدب التغافل أدبٌ عظيم، وخلقٌ كريم، وُصِفَ بأنَّهُ خلُقُ الكرام؛ مَن تحلّى به رُزِقَ راحة النفس، وسلامة الصدر، وطيب العيش، وكان محبوباً ممن حوله، وهو دليل على علو همة صاحبه، خلاف الذي يقف عند كل كلمة، ويرد على كل خطأ، ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة، فهو أكثر الناس شقاءً، وأشدهم نكداً، قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه: مَن لم يتغافل تنغَّصت عيشته[1].

فالعاقل الحصيف كريم النفس، يتجاوز ويتغافل عما لا ضَيْرْ في التجاوُزِ والتغافُلِ عنه، فلا يستقصي مكامن التقصير والخطأ، بل يدعها ولا يُبرزها ولا يقف عندها، فإن استقصاء كل خطأ وزلة يُفضي إلى البغضاء والشحناء والعداوة، وهذا مالا ينبغي على المسلم أن يقع فيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

روى ابن عبد البر في كتابه التمهيد، عن سعيد بن المسيب قوله: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وُهِبَ نقصه لفضله[2].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي، الجزء الخامس، ص ٤٤٤.

(٢) قصة سعيد بن المسيب وزواج ابنته، أ.د. عبد الحليم عويس، مقال منشور في موقع شبكة الألوكة بتاريخ ١٦يناير ٢٠١٦م https://www.alukah.net/.

وإذا كان الأمر كذلك، فحريٌّ بنا أن نزيِّن أخلاقنا بالتجاوز والتغافل عن أخطاء وعيوب إخواننا وأهلينا وأصحابنا؛ فإن الناس لا يحبون من يُذكِّرهم بعيوبهم أو يتتبع زلاتهم وسقطاتهم، وعلى الواحد منا أن يقبل أخاه بعيبه الذي هو فيه، وأن يغضَّ الطرف ويتغافل عما لا يعجبه من صفاته، ويتجاوز عن أخطائه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكمال ذلك أن نلتمس العذر، ونحسن الظن، ونقبل الاعتذار، فتلك مكارم الأخلاق وسبيل العافية، قال الإمام أحمد بن حنبل: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل[1]، نعم إنها العافية بعينها.

ألا تلاحظ أنك عندما تصحب رجلاً لا يتتبع الهفوات، ولا ينظر إلى سفاسف الأمور، فإن العلاقة معه تدوم؟،

إذاً هو خلق الكرام، وميزة العظام، به يدوم الوئام، وتروَّض اللئام، به تألفك الناس وتألفها، وتحبك وتحبها، وتذكّر أن من تتبع عورات الناس تتبعوا عوراته، وكما يقول المثل: إذا كان بيتك من زجاج فلا ترمِ الناس بالحجارة! ثم اعلم -رعاك الله- أنك إن طلبت أخاً بلا عيب عشت سجيناً وإن كنت تمشي بين الناس، قال الفضيل بن عياض: من طلب أخاً بلا عيب بقي بلا أخ[2].

إن التغافل من الفطنة ووفور العقل، ربما كان في التغافل إخماداً لفتنة في بدايتها، أو منعاً لحرج لنا أو لغيرنا، أو تجاوزاً عن تفاهة لا معنى للخوض فيها، وضررها أقرب من نفعها،

(١) تهذيب الكمال، المجلد ١٩، ص ٣٧٠.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، أبو حاتم البستي، ص ١.

فلا بد من التغافل أحياناً حتى لا نخسر قريباً أو صديقاً، أو نُمكّن عدواً منا.

التغافل يمنحنا أحياناً وقتاً للتفكير ومراجعة الأمر من جوانبه المختلفة والتفكر في أبعاده، كما يعطي الطرف الآخر فرصة للتراجع والمراجعة والإصلاح.

ومن منافع التغافل أنه يفضي لراحة النفس وطيب الخاطر، فربما تعرض أحدنا بين الحين والآخر لموقف مزعج أو ردة فعل غير متوقعة من أحدهم، أو مضايقة أو انتقاد جائر؛ فيكون لديه أحد خيارين في تلك الحالة: إما الغضب والتوتر والتضايق؛ مع ما يفضي إليه من هم وغم، أو الهدوء والصبر والتجاهل، وما يفضي إليه من راحة النفس وهدوء البال.

ويلفت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- نظرنا إلى حقيقة وجود الخطأ في الناس؛ فيقول: ليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأً مغفورًا لهم، بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقًا، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة، وقال -رحمه الله-: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]، فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون، والمتقون هم أولياء الله، ومع هذا فأخبر أنه يكفِّر

(١) سورة الزمر، آية ٣٣-٣٥.

عنهم أسوأ الذي عملوا، وهذا أمرٌ متفق عليه بين أهل العلم والإيمان[1]، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وابن تيمية -رحمه الله- بهذا يقرِّر حقيقةً مهمةً، وهي أن الخطأ من طبيعة الإنسان، وأنه مهما بلغ أعلى درجات التقوى والصلاح فلن يخلو من الخطأ والنقص، فما بالك بمن هو دون ذلك!

وربما ظن البعض أن من الدهاء والفطنة، الوقوف عند كل خطأ بتصحيحه، وكل عيب بالإشارة إليه، وكل زلة بتقويمها، وليس ذلك من الفطنة أو الدهاء في شيء، وهناك صنفٌ آخر هم أصحاب الهمم الدنيئة، الذين يذهبون إلى أبعد من ذلك؛ فيلتمسون مواطن الزلَّات والعثرات، ومكامن العيوب لدى الآخرين، ويفتشون عنها تفتيشاً، فهل ستدوم صحبةٌ من تلك أخلاقهم؟!

ولا يخفى على شريف علمكم أن الأخطاء والزلات والهفوات التي أدعو للتغافل عنها هي تلك التي لا تُعدُّ منكراً شرعياً، ولا يترتب عليها مظلمة أو مفسدة لا يليق السكوت عنها؛ ولكن المقصود هو غضُّ الطرف عما عدا ذلك من صغائر الأمور، فهو أمرٌ محمود وممدوح، وهو ما يسمى بالتغافل.

وقد جمعت في الفصل التالي نبذاً من كلام العلماء والفضلاء حول أدب التغافل ما يدل على أهميته وضرورته في حياتنا.

(١) مجموع الفتاوى، الجزء ١١، ص٢١.

قالوا في التغافل

تـرك لنـا علماؤنـا وسـلفنا الصالـح كنـزًا مـن الأقـوال التـي تحـثُّ عـلى التغـاضي والتغافـل في تعاملنـا مـع الآخريـن، وتُـبرز أهميـة وأثـر هـذا الخلـق العظيـم ودوره في الحيـاة، ومـن هـذه الأقـوال -عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر- مـا يـلي:

يقول أبو عمرو المكي: من المروءة التغافل عن زلل الإخوان[١].

يقول الأعمش: التغافل يطفئ شرًّا كثيرًا[٢].

قال بعض الحكماء: تناسَ مساوئ الإخوان تستدِمْ وُدَّهم[٣].

قـال ابـن الأثـير -رحمـه اللـه- متحدثًـا عـن صـلاح الديـنِ الأيـوبي: وكان رحمَـه اللـه حليمًا حسَـنَ الأخـلاقِ متواضِعًـا صبـورًا عـلى مـا يكـره، كثـيرَ التغافـل عـن ذنـوب أصحابـه، يسـمَع مـن أحدهـم مـا يكـرَه ولا يُعلمـه بذلـك، ولا يتغـيَّر عليـه[٤].

وقـال عـليٌّ -رضي اللـه تعـالى عنـه-: واللـه مـا اسـتقصى كريـمٌ قـطُّ حقـه[٥].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، الجزء الأول، ص ٥٣١.

(٢) شعب الإيمان، الجزء السادس، ص ٣٤٧.

(٣) أدب التغافل، بندر الرباح، منشور على موقع (خطباء) بتاريخ ٢٠١٣/٦/١٩م https://khutabaa.com.

(٤) الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٧.

(٥) تفسير القرطبي، الجزء ١٨، ص ١٨٨.

قال سفيان الثوري: ما زال التغافل من فعل الكرام[١].

قال عمرو بن عثمان المكي: المروءة التغافل عن زلل الإخوان[٢].

قال الشافعي -رحمه الله-: الكيّس العاقل هو الفطن المتغافل[٣].

قال جعفر بن محمد الصادق: عظموا أقداركم بالتغافل[٤].

قال أيوب السختياني: لا يسود العبد حتى تكون فيه خصلتان: اليأس مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم[٥].

قال أكثم بن صيفي: من تشدّد فرّق، ومن تراخى تألّف، والسعادة بالتغافل[٦].

ومن ظريف كلام أبي العباس -أول ملوك بني العباس-: التغافل عن ذنوب الناس وعيوبهم من أخلاق الكرام، والتهاون بفضحهم من أخلاق اللئام[٧].

قال الإمام محمد بن علي بن الحسين -رحمه الله تعالى-: جميع التعايش والتناصف والتعاشر في مكيال، ثلثاه فطنة وثلثه تغافل[٨].

---

(١) أدب التغافل، بندر الرباح، مرجع سابق، بتاريخ ٢٠١٣/٦/١٩م.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي، الجزء الأول، ص ٥٣١.

(٣) كثرة العتاب تفرّق الأحباب، د. خالد سعد النجار، منشور في موقع إسلام ويب بتاريخ ٥ مارس ٢٠١٥م https://www.islamweb.net/.

(٤) آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة، أبو البركات الغزي، ص ٥٥.

(٥) من أعلام السلف، أحمد فريد، الجزء ١٣، ص٩.

(٦) بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، الجزء الأول، ص ١٤٢.

(٧) اللطف واللطائف، أبو منصور الثعالبي، ص ٣.

(٨) الكامل في اللغة والأدب للمبرد، الجزء الأول، ص ٢١.

قال بعض السلف: الكلمة التي تؤذيك طأطأ لها رأسك فإنها تتخطاك[١].

يقول ابن الجوزي: ما يزال التغافل عن الزلات من أرقى شيم الكرام[٢].

قال ابن المبارك: المؤمن يطلبُ المعاذير، والمنافق يطلب الزلات[٣].

وقال بعض الحكماء: وجدت أكثر أمور الدنيا لا تجوز إلا بالتغافل[٤].

وقال شبيب بن شيبة: الأريب العاقل هو الفطن المتغابي[٥].

وقال كسرى لوزيره: ما الكرم؟ قال: التغافل عن الزلل[٦].

وقيل لأحد الحكماء: من أكمل الناس؟ قال: من لم يجعل سمعه غرضاً للفحشاء، وكان الأغلب عليه التغافل[٧].

نُقل عن عيسى -عليه السلام- أنه قال للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً وقد كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه! قال: بل تكشفون عورته! قالوا: سبحان الله! من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم، يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها![٨].

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، الجزء الأول، ص ١٧٩.

(٢) تهذيب الكمال، جمال الدين المزي، الجزء ١٩، ص٣٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الجزء الثالث، ص ٣٦.

(٤) أدب الدنيا الدين، الماوردي، الجزء الأول، ص ١٨٠.

(٥) أدب الدنيا والدين، الجزء الأول، ص ١٩٣.

(٦) شعب الإيمان، البيهقي، رقم ٨١٦٢.

(٧) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، الجزء ٣، صفحة ٤٤٩.

(٨) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الجزء الثاني، ص ١٧٨.

وقال أكثم بن صيفي: من شدَّد نفَّر، ومن تراخى تألَّف، والشرف في التغافل[١].

ولما سُئل الفضيل بن عياض عن أدب التغافل عن الإخوان قال: هو الصفح عن عثراتهم[٢].

قال المتنبي[٣]:

ليس الغبي بسيِّدٍ في قومه لكنَّ سيدَ قومِه المتغابي

قال الشاعر أبو هلال العسكري[٤]:

تغافل فليس السرو[٥] إلا التغافُلُ
وليس سقوط القَدرِ إلا التعاقُلُ
ولا تتجاهل إن بُليتَ بجاهلٍ
فليس فسادُ الجاهِ إلاَّ التجاهُلُ
فليس فسادُ الجاهِ إلاَّ التجاهُلُ
فرأس حماقات الرجال التطاوُلُ

قال الشاعر[٦]:

ولقد أمرُّ على السفيه يسُبُّني فمضيت ثمَة قلتُ لا يعنيني

(١) غاية المنوة في آداب الصحبة وحقوق الإخوة، حازم خنفر، ص ٩٧.
(٢) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، الجزء الثاني، ص ٣٤٣.
(٣) كيف نرسخ محبة النبي صلى الله عليه وسلم في الطفل، محمد نور سويد، ص١٢٠.
(٤) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، الجزء الأول، ص ١٤٠.
(٥) السرو تأتي في اللغة بمعنى الشرف والمروءة، أنظر: المعجم الوسيط، حرف السين.
(٦) شرح ابن عقيل، ابن عقيل الهمداني، الجزء الثاني، ص ١٩٦.

قال الشاعر[١]:

من كان يرجو أن يسود عشيرةً فعليه بالتقوى ولين الجانبِ
ويغض طرفاً عن إساءة من أساء له ويحلم عند جهل الصاحبِ

وأنشد كثيِّر عزة[٢]:

ومـن لا يُغمـض عينـه عـن صديقـه
وعـن بعـض ما فيـه يمتْ وهـو عاتبُ
ومن يتتبَّـع جاهـدًا كل عثرةٍ يجدها
ولا يُبقـى لـه الدهـر صاحـبُ

وقال جحظة البرمكي[٣]:

أُحـبُّ مـن الإخـوان كل مـواتٍ
وكل غضيـض الطـرف عـن هفـواتي

جاء في لامية ابن الوردي الشهيرة[٤]:

وتغافـل عـن أمـورٍ إنّـهُ لم يفزْ بالحمدِ إلا مَن غفلْ

(١) المنتدى الشرعي العام، الجزء ١٣٣، ص ٣٨.
(٢) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، الجزء الأول، ص٣٣٣.
(٣) المعسول في الإلغيين وتلامذتهم وأصدقائهم، الجزء الثاني، ص ٤٢٥.
(٤) لامية ابن الوردي في الأخلاق والحكم، منشورة في المكتبة الشاملة http://islamport.com/.

بين الغفلة والتغافل

إن الدعـوة إلى التحـلي بـأدب التغافـل، ليسـت دعـوة إلى السـذاجة والغفلـة، ولا هـي دعـوة لـترك المحاسـبة والإعـراض عـن التقصـير جملـة، إنمـا هـي وسـط بـين إفـراط وتفريـط، فليـس مقتضاهـا التغافـل عـن الخطـأ الـذي لابـد مـن تبيانـه وإصلاحـه، كـما أنـه ليـس مـن مقتضاهـا تتبـع وملاحقـة كل شـاردة وواردة، مـن الأخطـاء والـزلات وصغائـر الأمـور.

فالتغافـل هـو الإعـراض عـن علـم وإدراك لمـا يُتغافـل عنـه من التقصـير أو الخطـأ، وأمـا الغفلـة فهـي عـدم الإدراك، أو الجهـل بالـشيء لعـدم الانتبـاه، وذلـك مـن التفريـط، فالتغافـل ممـدوح جملـةً، سـيما إذا كان في موضعـه، كالتغـاضي والإعـراض عـن الأخطـاء والتقصـير التـي لا يـكاد يسـلم منهـا أحـد، أمـا الغفلـة فمذمومـة غالبـاً.

إن الدعـوة إلى أدب التغافـل هـي دعـوة إلى نـوع مـن الفطنـة والحكمـة، ودعـوة إلى ضبـط النفـس، والحلـم والـتروي؛ فـإن التغافـل هـو نـوع مـن الغفلـة المقصـودة، التـي لا تكـون إلا في موضعهـا حيـث يُـذم البحـث والتقـصي.

إن مـن الغفلـة، وليـس التغافـل، السـكوت عـن المفسـدين والمنحرفـين وأصحـاب الجرائـم، خاصـةً إذا كان بالإمـكان تغيـير منكرهـم ووضـع حـدٍ لهـم؛ فالتغافـل عنهـم نـوعٌ مـن الضعـف

والمهانة، يجعلهم يتجرؤون على أفعالهم القبيحة، ويتمادون هم وغيرهم فيه.

ومن الجدير بالذكر، أن التغافل يكون محموداً بشرط أن لا يكون في أمورٍ فيها تجاوز لحدود الله تعالى؛ كارتكابٍ للمحرمات، أو تقصيرٍ في الفرائض؛ فيجب حينذاك الأمر برفق بالمعروف، والنهي برفق عن المنكر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إن التغافل الذي نقصده وندعو إليه أكثر ما يكون في التنازل عن الحقوق والحظوظ الشخصية، وفي الأخطاء والزلات اليسيرة وفي صغائر الأمور وتوافهها، ولكن ليس في التقصير في حقوق الله أو واجباته تغافل، ومن المؤسف أن نجد البعض يعكس الأمر؛ فيتغافل عن حقوق الله ولا يتغافل عن حقِّه.

ولا بد هنا من لفت الانتباه إلى أنه قد يستدعى الحال التغافل (بحكمة) عن بعض الكبائر والعظائم، لترتيب الأفكار وتدبر الأمر، قبل القيام بأمر غير مدروس وبلا حكمة؛ فيكون الضرر أكبر من المنفعة.

وإن من أعظم الغفلة تجاهل الإيجابيات التي لدى الآخرين، بعدم ذكرها والثناء عليها، خاصة لدى الأطفال والناشئة، كما أنه ليس من التغافل السكوت عن خطأ مستمر، أو القعود عن دفع ضرر قائم أو متوقع، أو التقاعس عن رفع ظلم وليس من التغافل السكوت عن أمر يحتاج لتدخل سريعٍ بنصيحة أو تنبيه.

وأخيراً.. فإن التغافل -بكل تأكيد- لا يعني إغفال النصيحة إذا ظهر ما يستدعي ذلك بالأسلوب الأمثل، وكما قيل فإن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه.

نماذج من أدب التغافل

خلق التغافل، ذلك الخلق الرفيع، يحوي عدداً من معالي الأخلاق؛ فتارةً هو الحلم والأناة، وتارةً هو الصبر والمداراة، وتارةً هو الحياء، وتارةً هو الكرم، وتارةً هو التواضع... وغير ذلك من مكارم الأخلاق والآداب، كما أن الكبار قديماً وحديثاً تخلّقوا بخلق التغافل، وتأدبوا بأدبه في تعاملهم مع الناس، وأعني بالكبار هنا كبار العقول والأفهام، كبار النفوس والأخلاق.

فبمثل تلك الأخلاق، ساد وسما أصحابها، وصاروا سادة قومهم وكبار زمانهم، فما أجمل هذا الخلق الكريم، وما أحوجنا للتحلي به، متغافلين ومتجاوزين عن الهفوات، قابلين الأعذار مقيلين للعثرات، ساترين القبيح ومُظهرين الجميل.

وفيما يأتي نسوق نماذج من قصص ومواقف أصحاب التغافل، علَّنا نحذو حذوهم ونتأسى بهم في أدب تغافلهم، وهي غيض من فيض مما تشتمل عليه كتب السير والأعلام.

أولًا: الإعراض عن السفهاء والجهلة

إن من أعظم صور التغافل هي التغافل عن تطاول السفهاء وحماقة الجهلاء وسوء أدب من لا خَلاق لهم، وأسوق هنا أمثلة من تغافل نبينا -صلى الله عليه وسلم- وحفيده زين العابدين في هذا النوع من الأدب.

ومن ذلك أنه كان نفرٌ من المشركين حين يمرون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يسبّونه ويشتمونه بعد أن يقلبوا اسمه من محمّد إلى مُذمّم، فكانوا يقولون قبّح الله مذمّماً وقاتل الله مذمّماً -قاتلهم الله وقبحهم- فماذا كان رده -عليه الصلاة والسلام-؟

روى البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن المشركين كانوا يسبّون النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقول لأصحابه: ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مُذَمَّمَاً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمَّد[1]، مع أنه يعلم -عليه الصلاة والسلام- أنهم إنما قصدوه؛ وهو من أدب تغافله -صلى الله عليه وسلم- في تعامله مع السفهاء والجهلاء.

ومثال آخر ما رواه البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليه بُردٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبةً شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أثَّرت بها حاشية البُرد من شدّة جذبته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء[2]، فانظر كيف تغافل -صلى الله عليه وسلم- عن سوء أدب وغلظة تعامل ذلك الأعرابي، منبسطاً له بحلمه، مُجزلًا له في عطائه.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٣٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، حديث رقم ٢٩٨٠.

ومثال آخر ما ذُكر عن حفيد النبي -صلى الله عليه وسلم-، علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين -رضي الله عنهم أجمعين-، أن رجلاً جاء إليه يسبّه وهو في الطريق ومعه الأتباع والعبيد، فتغاضى عنه علي بن الحسن وكأنما لم يسمعه، فزاد هذا الرجل في السبّ، فتغاضى عنه مرة أخرى، ثم زاد في السب، عندها ثارت حمية من معه، وأرادوا أن يبطشوا بذلك الإنسان، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل وقال له: ما سُتر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه علي بن الحسن خميصةً كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فقال الرجل: أشهد أنك من أولاد الرسول[1]، وقد سُمّي بزين العابدين بسبب أخلاقياته العالية تلك.

وإليك مثالاً واضحاً جلياً لتغافله -صلى الله عليه وسلم- مع من أساء إليه حتى وإن كان من ألد أعدائه (اليهود)، فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة - رضي الله عنها- قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها؛ فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله، زولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: قد قلت وعليكم. والسام يعني الموت[2]، فانظر إلى تغافله -صلى الله عليه وسلم-، وترفّعه

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٢٣٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب كيف يرد أهل الذمة السلام، حديث رقم ٥٩٠١.

عـن مجاراتهـم في دناءتهـم، مـع فطنتـه وإدراكـه لمقولتهـم فـما زاد عـلى أن قـال وعليكـم، ولـو قدَّرنـا أن أم المؤمنـين عائشـة -رضي اللـه عنهـا- لم تحـضر تلـك الحادثـة لانـصرف أولئـك النفـر مـن اليهـود ظانّـين أنـه -صـلى اللـه عليـه وسـلم- لم يفطـن إلى مقولتهـم النكـراء. وتعاملـه -صـلى اللـه عليـه وسـلم- في ذلـك الموقـف يُعـدّ مـن التغافـل مـع تمـام الفطنـة.

عدم تقصّي أمور البيت فيما لا مصلحة فيه

وليـس المقصـود منـه التغافـل عـن العيـب والخلـل الـذي لابـد مـن تبيانـه وإصلاحـه، بـل التغافـل عـمّا لا مصلحـة في تقصيّـه والوقـوف عليـه، فهـذه امـرأة تصـف زوجهـا بالفهـد في تغافلـه، في حديـث يُعـرف بحديـث أم زرع، وهـو حديـث طويـل، وقصتـه -باختصـار- أن إحـدى عـشرة امـرأة اجتمعـن عنـد أم المؤمنـين عائشـة -رضي اللـه عنهـا-، فأخـذن يذكـرن مـن أحـوال أزواجهـن في تعاملهـم معهـن، بـين مادحـةٍ زوجهـا وأخـرى ذامـةً زوجهـا، إلى أن قالـت الخامسـة تمـدح زوجهـا: زوجـي إن دخـل-أي البيـت- فَهِـد، وإن خـرج أَسِـد ولا يسـأل عـما عَهِـد[1]، أي تشـبهه إذا دخـل البيـت بالفهـد؛ تصفـه بكـثرة الغفلـة في المنـزل عـلى وجـه المـدح، والفهـد موصـوف بكـثرة النـوم، وقيـل في المثـل: أنـوم مـن فهـد، والـذي تقصـده أنـه لا يتفقـد مـا يذهـب مـن مالـه، ولا يلتفـت إلى معايـب البيـت ومـا فيـه، كأنـه سـاهٍ عـن ذلـك غـير متفقـد لـه، (ولا يسـأل عـما عهِـد) يعنـي عـن مـا كان يَعهَـدُه قبـل ذلـك عندهـا، فهـو كريـم لا يسـأل عـما تـرك في البيـت مـن زاد

(١) تهذيب الكمال للمزي، الجزء ١٣، ص ٥٣.

وطعـام، ويقـال: فَهِـد الرجـل إذا غفـل عـن الأمـور، ثـم تقـول: وإن خـرج أَسِـد، تصفـه بالشـجاعة إذا خـرج إلى النـاس ومشـاهدة الحـرب ولقـاء العـدو، أي صـار أسـدًا في حمايتـه وشـجاعته، يقـال أسِـد الرجـل واستأسـد بمعنـى واحـد، وهـذا الصنـف مـن الرجـال ممـدوح لـدى النسـاء.

الاهتمام بحديث المتحدث وإن كنت تعلمه

ذكـر ابـن جريـج عـن عطـاء بـن أبي ربـاح قـال: إن الرجـل ليحدثنـي بالحديـث فأنصـت لـه كأن لم أسـمعه قـط؛ وقـد سـمعته قبـل أن يولـد، فانظـر إلى ذلـك الأدب الرفيـع منـه -رحمـه اللـه-، وقـارن بـه إن شـئت مـا يكون من بعضهـم إذا حُـدِّث بحديث يعرفه فيبـادر بقطـع حديـث المتكلـم، مبديـاً معرفتـه بـه، أو خطـف زمـام الحديـث مـن المتكلـم عنـوة بإكـمال باقـي الحديـث نيابـةً عنـه.

الإعراض عن زلة وقعت بغير قصد

ومثالـه الأول مـا ذكـره ابـن الأثـير متحدثًـا عـن صـلاح الديـن الأيـوبي، قـال: وكان صبـورًا عـلى مـا يكـره، كثـير التغافـل عـن ذنـوب أصحابـه، يسـمع مـن أحدهـم مـا يكـره، ولا يُعلمـه بذلـك، ولا يتغـير عليـه، وبلغنـي أنـه كان جالسًـا وعنـده جماعـة، فرمـى بعـض المماليـك بعضًـا بسرمـوزٍ -نعـل- فأخطأتـه، ووصلـت إلى صـلاح الديـن فأخطأتـه ووقعـت بالقـرب منـه، فالتفـت إلى الجهـة الأخـرى يكلِّـم جليسـه؛ ليتغافـل عنهـا كأنـه لم يـره! منعـاً لإحـراج الفاعـل. إنهـا أخـلاق كبـار النفـوس[1].

(١) الكامل في التاريخ، الجزء العاشر، ص ٥٦٢.

ومثاله الثاني ما رُوي عن عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله-، فإنه لما ولي الخلافة خرج ذات ليلة ومعه حارسه، فدخل المسجد فمرّ في الظلمة برجلٍ نائم فعثر به، فرفع النائم رأسه قائلاً: أمجنون أنت؟ فرد عليه عمر:لا، فهمّ به الحارس، فقال له عمر اتركه؛ إنما سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[1].

الإعراض عن مزاح الثقلاء

يقع أحياناً من بعض الثقلاء مزاحٌ فيه نوع من الاستخفاف أو قلة الذوق، فمن جميل الأدب أن نتغافل عنه ولا نجاريه في ذلك، قال رجل لأبي هريرة -رضي الله عنه-: أنت أبو هريرة؟ قال: نعم، قال: سارق الذريرة (الذريرة نوع من الطيب)، قال أبو هريرة: اللهم إن كان كاذباً فاغفر له، وإن كان صادقاً فاغفر لي، هكذا أمرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[2]، فانظر إلى هذا الأدب الجم والخلق الرفيع من صحابة رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين-.

الإعراض عما يحرج الآخرين

حاتم الأصم هو الشيخ القدوة الرباني أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان البلخي، الواعظ، كان يقال له لقمان هذه

(١) منهج عمر بن عبد العزيز في الإصلاح، جمعة الرواحنة، بحث منشور في موقع دائرة الإفتاء الأردنية بتاريخ ٢ مايو ٢٠١٢م https://aliftaa.jo/.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، الجزء الأول، صفحة ١١١.

الأمة، لماذا سُمي بالأصم؟، ورد في مدارج السالكين قال أبو علي الدقاق: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت (ريح) في تلك الحالة، فخجلت وارتبكت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، أوهمها أنه أصمّ، فسُرّت المرأة بذلك، وظنت أنه لم يسمع الصوت؛ فلقّب بحاتم الأصم[1].

هذا الأدب من حاتم الأصم يمكن أن نسميه (أدب التغافل) هو من أدب السادة، أما السوقة -حاشاكم- فلا يتقنونه.

الإعراض عما لا يعنيك

من صور التغافل التي حثنا عليها ديننا الحنيف عدم الخوض فيما لا يعنينا، شاهده من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[2]، ورُوِي عن حسان بن أبي سنان -وهو أحد زهاد التابعين- أنه مرّ بغرفةٍ، فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عما لا يعنيك، لأعاقِبنَّك بصيام سنة[3].

الإعراض عن المراء والجدل العقيم

كثيراً ما يقع الجدال بين الناس في أمر ليس ذا أهمية، فيحتدم النقاش ويطول، ويحاول كل طرفٍ إظهار حجته وبطلان حجة الآخر، وقد نهينا عن ذلك. ورد في الحديث

(١) الجبل الأشم في مناقب حاتم الأصم، د. عادل الغرياني، منشور في موقع شبكة الألوكة بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠١٤م https://www.alukah.net/.

(٢) سورة الإسراء، آية ٣٦.

(٣) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، الجزء الرابع، ص ٤٠٦.

الذي رواه أبو أمامة الباهلي وصحّحه الألباني إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ... الحديث[1]، والمراء هو طعن الإنسان في كلام غيره؛ لإظهار خلله واضطرابه، لغير غرض سوى تحقير قائله، وإظهار مزيته عليه، فالتغاضي عن ذلك وإن كنت محقاً من أدب التغافل المطلوب شرعاً.

وربما انقلب النقاش إلى جدلٍ عقيم عندما يدلي أحد الطرفين بحجج واهية تغير مجرى النقاش إلى جدل لا مصلحة من ورائه، ومثاله في القرآن ما قاله النمرود لإبراهيم -عليه السلام- حين قال: أنا أحيي وأميت، قال بعض المفسرين إنه أتى برجلين فحكم على أحدهما بالقتل وعفا عن الآخر، قائلاً إنه أمات أحدهما وأحيى الآخر[2]، ومع أن حجته تلك فاسدة ولا تدل على قدرته على الإحياء والإماتة، فقد تغافل عنها إبراهيم -عليه السلام- ولم يجادله فيها مع وضوح بطلانها تجنباً للدخول في جدل عقيم لا يخدم المصلحة، ثم رماه بحجة أقوى قائلاً: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[3]، ويستفاد من ذلك أنه ليس من الضرورة الذهاب إلى إثبات صحة أو عدم صحة كل جزئية في النقاش، فلا بأس بالتغافل عن بعض النقاش وإن كان غير صحيح، لما تقتضيه المصلحة.

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، حديث رقم٤٨٠٠.

(٢) تفسير الطبري للآية ٢٥٨ من سورة البقرة، وكذلك تفسير ابن كثير لنفس الآية.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٨.

قبول عذر من اعتذر إليك صادقاً كان أو كاذباً

من التغافل المحمود قبول عذر من اعتذر إليك، وهو مطلبٌ لسلامة الصدر وراحة البال، فقد كان من خلق نبينا الكريم -صلى الله عليه وسلم- قبول عذر من اعتذر إليه، ولا يفتش عن صحة ذلك من عدمه. فقد قبل أعذار من تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين ووكَّل سرائرهم إلى الله، باستثناء الثلاثة الذين لم يقدموا أعذاراً في قصتهم المعروفة، -رضي الله عنهم-، روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال عن الله -جل جلاله-: ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين[1]، وقد ورد في كتب الآداب: اطلب لأخيك المعاذير من سبعين باباً، فإن لم تجد له عذراً فاعذره أنت.

قال الشاعر:

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً

إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا

واعلم أن قبول العذر والتغافل عن الزلل يدل على علو الهمة، وسماحة النفس، وكريم الخلق.

الإعراض عن عدوٍ لا تستطيع صده، وعمن لا تستطيع معاقبته

إن من الفطنة التغافل عن كل عدو لا تستطيع صده والانتصار منه إلى حين أن يمكّن الله منه، ومثاله ما كان من

(١) رواه البخاري، كتاب ولا أحد أحب إليه العذر من الله، حديث رقم ٤٦٣٤.

النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة عندما كان المشركون يؤذون ويعذبون أصحابه، فيسكت عن ذلك؛ تغليباً لمصلحة أكبر، إلى أن مكَّنه الله منهم فيما بعد.

كذلك التغافل عن كل ذنب لا تستطيع معاقبة فاعله عليه، انظر إلى قوله -صلى الله عليه وسلم- في إنكار المنكر: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[1]، فالمرتبة الثالثة من إنكار المنكر تكون بالقلب في حال عدم استطاعة الإنكار باليد أو باللسان، وذلك يقتضي التغافل عن المنكر ظاهراً مع إدراكه وإنكاره باطناً.

الإعراض عن الحديث في غير مصلحة

حين تطالع سير العلماء والصالحين وأصحاب الهمم العالية، تجد أن مِن صفاتهم قلة الكلام وكثرة الصمت إلا فيما لا بد منه، ولطالما حث المربون أتباعهم وطلابهم على عدم الثرثرة وقلة الكلام إلا لمصلحة، انظر إلى قول الحق سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[2]، أي أن كثيراً من كلام الناس لا خير فيه إلا ما استثناه الحق جل جلاله، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3]، وفيه تنبيه للمسلم على أن كل كلمة محسوبة عليه، وستُكتب

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم ٤٩.

(٢) سورة النساء: ١١٤.

(٣) سورة ق: ١٨.

وستعرض عليه أمام الله يوم القيامة، كما وردت في ذلك أحاديث كثيرة منها قوله -صلى الله عليه وسلم- حين سأله عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قائلاً: ما النجاة؟، قال -صلى الله عليه وسلم-: أمسك عليك لسانك...إلى آخر الحديث[1] رواه الترمذي، وقال -صلى الله عليه وسلم- أيضاً: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت[2]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده[3]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وما ذاك إلا لأهميته، وكلها تحض على الإعراض عن الحديث فيما لا مصلحة فيه.

قال عبد الله بن المبارك: عجبت من اتفاق الملوك الأربعة كلهم على كلمة، قال كسرى: إذا قُلتُ ندمتُ، وإذا لم أقل لم أندم، وقال قيصر: إني على ردّ ما لم أقل أقْدرُ مني على رد ما قلتُ، وقال أحد ملوك الهند: عجبت لمن تكلم بكلمة؛ إن هي رُفعت ضرّته، وإن هي لم ترفع لم تنفعه، وقال أحد ملوك الصين: إن تكلمتُ بكلمة ملكَتْني، وإن لم أتكلم بها ملَكْتُها[4].

فعلى المرء الحصيف قبل أن يتكلم بالكلمة أن ينظر هل المصلحة في الكلام أم في الصمت، فالإعراض عن لغو الكلام وعن الثرثرة تغافل محمود مندوب إليه شرعاً.

---

(١) رواه الترمذي، حديث رقم ٢٤٠٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، حديث رقم ٥٧٨٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم ١٠.

(٤) الآداب الشرعية، ابن مفلح المقدسي، الجزء الأول، ص ٦٣.

مداراة الجهلة والانبساط إليهم

ورد في معجم الطبراني عن أم المؤمنين -رضي الله عنها- قالت: استأذن رجل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: بئس أخو العشيرة! فلما دخل عليه أقبل عليه بوجهه وحدّثه، فلما خرج قلت: يا رسول الله: قلت بئس أخو العشيرة، فلما دخل أقبلت عليه بوجهك وحدثته، فقال: إن من شرار الناس من يُتقى لشرِّه[1].

غض الطرف عن التقصير بحقك بعض الشيء

ومثاله ما حكاه لنا أنس بن مالك -رضي الله عنه- فيما رواه الترمذي، قال: خدمت النبي -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته لمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته لمَ تركته؟ وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أحسن الناس خلقاً[2].

وإذا أمعنت الفكر في حديث أنس وخدمته للنبي -صلى الله عليه وسلم- تلك المدة الطويلة ستعلم يقيناً أنه قد وقع منه أخطاء وتقصير في حق النبي -صلى الله عليه وسلم-، سيما أنه بدأ بخدمته للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير السن، وقبل ذلك وبعده هو بشر يخطئ ويصيب، ولكن لكَرِم خُلقه -صلى الله عليه وسلم- لم يزجره أو يعاتبه على خطأ أو

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، حديث رقم ٥٦٨٥.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، حديث رقم ٢٣٠٩.

تقصيرٍ حصل، وذلك تغافلاً منه -صلى الله عليه وسلم- عما يحدث من تقصيرٍ في حقه الشخصي أو لأمر دنيوي، فقد عُرف عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه كان لا يغضب لأمر من أمور الدنيا إلا أن تُنتهك حرمة من حرمات الله، فهلّا كان لنا في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوةٌ حسنة!

مداراة المحتالين إذا كان لمصلحة

من شيم الكرماء من الناس التغافل بمداراة المحتالين إذا قُدِّر أن في ذلك مصلحة، حُكِي انه جاء رجل في زمن الخليفة المهدي وفي يده نعل ملفوف في منديل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه نعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أهديتها لك. فقال: هاتها، فدفعها الرجل إليه، فقبّل باطنها وظاهرها ووضعها على عينيه، وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم، فلما أخذها وانصرف قال المهدي لجلسائه: أترون أني لم أعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يرها فضلاً على أن يكون لبسها! ولو كذّبناه لقال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فردّها عليّ، وكان مَن يُصدّقه أكثر ممن يدفع خبره، إذْ كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها، والنصرة للضعيف وإن كان ظالماً على القوي، فاشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدّقناه، ورأينا الذي فعلناه أنجح وأرجح[1].

وهذه قصة وقعت للشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله-، يرويها أحد الفضلاء عن أحد طلبته، ومفادها: أن رجلاً جاء

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، الجزء ١٣، ص ٥٤٠.

يطلب مساعدة مالية من الشيخ، وكان للشيخ مكتب يستقبل فيه أهل المسائل، وكان له أمين صندوق، فيأمر الشيخ كاتبه بكتابة ورقة بمبلغ المساعدة المالية، ويعطيها لصاحب الحاجة ليتوجه بها إلى أمين الصندوق في غرفة أخرى ليستلم المبلغ، فأمر الشيخ أن يُصرف لذلك السائل مبلغ ألفي ريال، فأخذ الرجل الورقة ولما خرج من المكتب أضاف إلى الرقم صفراً، فأصبح المبلغ عشرين ألف ريال، ولم يفطن إلى أن المبلغ مكتوب بالحروف أيضاً، فلما وقف أمام أمين الصندوق شكّ في أمره، فطلب منه الانتظار، وذهب إلى الشيخ وسأله عن المبلغ الذي كتبه للرجل قبل قليل، فتبين لهم ما فعله من تزوير! فقال الشيخ -رحمه الله-: والله ما كتبها إلا وهو محتاج لها، وأمر بأن يصرف له عشرون ألف ريال، ولا يخبروه بشيء. يقول ناقل القصة إنه بعد مدة التقى بالشيخ عبدالعزيز -رحمه الله-، فسأله عن صحة تلك القصة، فأجابه بأنها صحيحة، وزاده بأنه بعد أعوام حضر نفس الرجل إلى مجلسه ومعه ثمانية عشر ألف ريال، وذكر للشيخ ما كان من أمره في تزوير المبلغ في ذلك الحين، فقال له الشيخ عرفنا ذلك في حينه وسامحناك، فالمبلغ كله لك، فتأثر الرجل وبكى وأصر على الشيخ أن يأخذ منه المبلغ، فطلب منه الشيخ أن يعطيه رجلاً كان في مثل حاجته حين أخذه.

الإعراض عما في أيدي الناس

من أجمل أدب التغافل؛ التغافل عمّا في أيدي الناس وما بسط الله لهم من رزق وخلافه، وقد أدّب الله نبيه -صلى

الله عليه وسلم- في ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1]، ولنا في رسولنا أسوةٌ حسنة، فليرضَ كلٌّ منا بما قسم الله له، ولينظر إلى من هو دونه كي لا يزدري نعم ربه عليه.

حدثني أحدهم -في حديث خاص- أنه إذا مرَّ في طريقه بمنزل جميل أو سيارةٍ فارهة، أو متاعٍ حسن، دعا لأصحابها بالبركة، وإذا مرَّ بصبية في الشارع -ممن يعرفهم أو لا يعرفهم- دعا لهم بالبركة والصلاح.

تلك جملة نماذجٍ لأدب التغافل مما يسّر الله إيراده، وإلا فهي أكبر وأكثر مما ذكرته، لكن يكتفى من القلادة بما أحاط بالعنق.

(١) سورة طه: ١٣١.

التغافل بين الزوجين

إن كان التغافل مطلوبًا مع عموم الناس، فإنه أشد أهمية وضرورة بين الزوجين، نظرًا للحياة المشتركة بينهما، والتي لا بد وأن يحصل فيها شيء من الخطأ أو التقصير من أحدهما تجاه الآخر بين الحين والآخر، فإن لم يحسن الزوجان فن التغافل، تحولت حياتهما إلى مجموعة من المشاكل والخلافات التي قد تتطور إلى ما لا تُحمد عقباه.

وقول الشافعي (الكيِّس العاقل هو الفطن المتغافل) يصلح منهاجاً للتعامل بين الناس عامة، وللتعامل بين الزوجين خاصة، ومسئولية المحافظة على تماسك العلاقة الزوجية ومنعها من الانهيار تقع على كلا الزوجين؛ لكني أهمس في أذن الرجل: أن يستحضر في تعامله مع زوجته، أن المرأة ذات اعوجاجٍ فطري يتناسب مع خلقتها ورسالتها (ولا يُنقص ذلك من قدرها)، فهي تختلف عنه في طريقة التفكير وفي غلبة العاطفة، فإذا كان هو ممن يقف عند كل تصرف يراه خلاف الصواب والمنطق، مصرًّاً على التقويم والتعديل؛ ولم يعمل بالتجاوز والتغافل، فإنّ ذلك -غالباً- يؤدي إلى فتور العلاقة الزوجية، وربما انهيارها.

قال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث المتفق عليه: استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنّ المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج

ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوجاً، فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

إن وقوع الأخطاء والتقصير في المسئوليات والواجبات الزوجية من أحد الطرفين تجاه الآخر، أمر لا يكاد يسلم منه أحد، فما كان يسيراً أو غير مقصود أو غير متكرر، فالأولى التغافل عنه وتجاوزه، وما عداه فقد يُكتفى بالإشارة إليه والتلميح تارة، أو التصريح أخرى، بما يقتضيه الموقف؛ فلكل مقام مقال.

قد يجد أحد الزوجين لدى شريكه عادةً لا تعجبه، أو خصلة تعود عليها ولا يستطيع تركها، وهي لا تؤثر في حياتهما الزوجية بشيء يذكر، فيوجّه اهتمامه لتلك الصفة أو الخصلة، فتراه دائم التعليق عليها، كثير النصح حولها، متجاهلاً كل صفات شريكه الإيجابية، ولا ينبغي ذلك فلربما حصل بسببه النفور والفتور في العلاقة، والمنشود هنا -بل الواجب-، التغافل عما لا ضرر منه، وليقبل كل شريكٍ شريكه بنواقصه وخصاله التي لا ضرر من وجودها، فإنّ النقص طبيعة البشر، والكمال عزيز.

إنّ أحرج مرحلة تمر بها الحياة الزوجية في تقديري، تكون في أول سنة أو سنتين من الزواج؛ فكثيراً ما تقع حالات طلاقٍ في تلك المرحلة المبكرة من الحياة الزوجية، وقد يرجع ذلك إلى أن كلا الزوجين يفتقران في تلك المرحلة المبكرة إلى الخبرة في إدارة شئون الأسرة، وكيفية التصرف في المواقف المختلفة، وسبب آخر؛ وهو أن كل منهما حديث عهد بطباعِ

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، حديث رقم ٤٨٩٠

وسلوك ومزاج الطرف الآخر، حيث تربى ونشأ كل منهما في بيئة عائلية مختلفة عن الآخر.

وهنا لا بد من التنبيه على بعض النقاط الهامة فيما يتعلق بالتغافل بين الزوجين:

أولاً: إن على كل من الزوجين أن يدرك أن شريك حياته بشر، يخطئ ويصيب، وتعتريه حالات من تقلب المزاج، وتصرفاته تحكمها عوامل شتى، ولا يمكن تصوّر أن تكون المعيشة مثالية على الدوام، ولابد أن نقبل بالواقع الطبيعي وغير المثالي.

ثانياً: لابد أن يعي كل من الزوجين أن لكل منهما نمط شخصية وطباع مختلفة عن شريك حياته، مما يؤدي إلى اختلافٍ في السلوك، وفي طريقة التعامل، وردة الفعل في المواقف المختلفة، فلا بد من الصبر وتقدير ذلك الأمر.

ثالثاً: في مقتبل الحياة الزوجية، لابد من إعطاء الفرصة لكل طرف من الطرفين حتى يتأقلم مع طباع وعادات الطرف الثاني، فلا بد من الصبر والمداراة في تلك الفترة. وخلاصة القول إن كلا الزوجين في تلك المرحلة الحرجة أحوج ما يكونان إلى التعامل بأدب التغافل، متمثلاً في التسامح وعدم تحميل الأمور أكثر مما تحتمل.

ونسوق هنا بعض الأمثلة الافتراضية لتوضيح ما أقصده، فعلى سبيل المثال، قد يجرح أحد الزوجين شريكه بكلمة قاسية، أو نقد جائر، أو يذكر عيباً معيناً فيه، وليس من عادته فعل ذلك، لكن كما قيل: لكل عالمٍ هفوة، ولكل جوادٍ كبوة،

تلك التصرفات وأمثالها، يكفي في علاجها الإشارة والنصح على انفراد، ولا ينبغي أن يقع الخصام والهجران من أجلها، ذلك أنها عابرة وليست دائمة، فالأصل في المشاكل العابرة اتباع أسلوب التغافل.

مثال آخر: يأتي الزوج من عمله فيجد الطعام به عيب معين وليس كما يريده -على غير العادة-، زاد ملحه أو قلّ مثلاً، أو تأخر لبعض الوقت، أو ربما وجد تقصيراً ما من الزوجة، فقبل أن يعاتب أو ينتقد، يتمهل قليلاً، ويتذكر حسناتها وإيجابياتها وتعبها في خدمته وخدمة بيته وأبنائه، فيسهل عليه حين ذاك التجاوز والتغافل، سيما إذا كانت تعاني من ظرف نفسي أو صحي، ولا مانع من لفت الانتباه إلى الخلل والتقصير بلطف. روى الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: إن الله يحب الرفق في الأمر كله[1].

كذلك الزوجة، ربما تجد تصرفاً غير لائق من زوجها في حقها أو حق أهلها يوماً من الدهر، وليس من عادته ذلك، أو ربما طلبت منه حاجة تخصها أو تخص المنزل، فتأخر في إحضارها أو نسيها، فينبغي في تلك الحالات ومثلها الصبر والتجاوز والتغافل، وعدم الوقوف طويلاً عندها على أنها مشكلة.

وهناك أمر جد هام لابد من التنبيه إليه، وهو ضرورة عدم التفتيش والتجسس بين الزوجين، وهو من أهم أبواب

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، حديث رقم ٥٦٧٨.

أدب التغافل بين الناس عامة وبين الزوجين خاصة، فإن التقصي والتجسس يدل على الشك والريبة وانعدام الثقة، مما يؤدي لعدم استقرار العلاقة الزوجية وربما انهيارها، وكما هو معلوم فإن شرعنا المطهَّر ينهى عن التجسس والشك، فإن الله إذا أراد كشف سترٍ هيأ له سببه دون الحاجة إلى تفتيشٍ أو تجسس.

وعندما ننادي بالتحلي بأدب التغافل فليس ذلك دعوة لترك الحبل على الغارب، وإهمال النصح التوجيه والنظر في أحوال الأهل، فلا بد من المناصحة بين الزوجين، وتبيان وجهات النظر فيما لا بد منه، فالمقصود هو التغاضي عن يسير الأخطاء والهفوات، وتجاهل ما لا يمكن تغييره من الصفات أو الطباع التي لا ضرر من وجودها، فإن كثرة الانتقاد والمحاسبة وقلة التشجيع، تؤدي إلى الإحباط وعدم الرغبة والاهتمام في إرضاء الطرف الآخر.

إن على الإنسان أن يتفحص أحوال أهل بيته فإن عثر على ريبة حرص على إزالة سببها، ولا يقول عاقل إن الإنسان ينبغي له التغافل عن أهل بيته ومن هم تحت يده وإهمال النظر في أحوالهم مما قد يسوقهم إلى الفساد، واستكشافه لأحوالهم لا ينافي الستر المطلوب فإنه إن رأى ريبة أدّب سرّاً وحسم طريق الفساد.

ختاماً أقول: ينبغي على كل من الزوجين تبسيط الأمور وأخذها على المحمل الحسن، والتجاوز وعدم تحميل بعض التصرفات أو الكلمات فوق ما تحتمل، فلا ينبغي على الحياة

الزوجيـة أن تكـون مبنيـة عـلى التنافـس والنديّـة كخصـمٍ لخصـم، بـل عـلى التكامـل والتسـامح، ومـما يعـين عـلى ذلـك التحـلي بـأدب التغافـل مـا اسـتطاعا إلى ذلـك سـبيلاً.

التغافل مع الأبناء

إن كان التغافل مطلوبًا بين الزوجين، فهو كذلك مطلوب مع الأبناء، وهذه دعوة للتغافل -لا الغفلة- عن بعض ما يصدر من الأبناء من عبث أو طيش، فذلك نمط من أنماط التربية الرشيدة، وهو مبدأ لابد أن يتبناه الآباء في تعاملهم مع أولادهم ومع الناس عموماً، فالوالد العاقل الفطن لا يُشعر أبناءه بأنه يعلم عنهم كل صغيرة وكبيرة؛ فإنه إذا فعل ذلك وداوم عليه ذهبت مهابته من قلوبهم، ولم يعد للعقاب خشية.

إن تغافل الأب أو المربي يعينه على تقديم النصح بقالب غير مباشر، من باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؛ وذلك له أثره القوي في تصحيح الخطأ دون حرج.

وقد يضخّم الآباء أحياناً أخطاء الأبناء، ويعطونها أكثر من حجمها الطبيعي، وذلك خطأ تربوي شائع، والواجب عليهم أن يقدروا لكل خطأ قدره؛ فإن تضخيم الخطأ يُربك الأولاد ويُضعف ثقتهم بأنفسهم، وربما أكسبهم الشدة وعدم المرونة في التعامل مع الآخرين، فهو سيتبنى أسلوب تضخيم الأخطاء كما يشاهد والديه يفعلان.

وربما أخفى الأبناء بعض أخطائهم عن والديهم إما خوفاً من العقاب أو تقديراً وحياءً، فننظر حين ذاك فإن كان

خطـأً لا ضـير في تجـاوزه والتغافـل عنـه فـلا ينبغـي مكاشـفتهم وإعلامهـم بمعرفتنـا بـه، لتبقـى هيبـة الوالديـن ولنصـون كرامـة الأبنـاء وتبقـى معنوياتهـم مشرقـة، وأمـا إن كان الخطـأ مـما لابـد مـن التنبيـه عليـه وتصحيحـه، فيكـون بالحكمـة والموعظـة الحسـنة عـلى انفـراد، ومهـما كانـت فداحـة الخطـأ فـإن الأولى أن نرشـد الابـن إلى الصـواب وإلى الطريـق الصحيـح دون جـرح لكرامتـه أو نـزع الثقـة منـه أو رفـض اعتـذاره، فالنفـس غالبـاً لا تتقبـل النصـح بعـد العقـاب أو السـخرية والتجريـح.

تغافـل الوالديـن يُعـد ضرورة مـن ضرورات التربيـة الحكيمـة المؤثـرة؛ إذ يتحتـم أحيانًـا غـض الطـرف والتغافـل عـن الهفـوات والـزلات التـي تصـدر عـن الأبنـاء، فعـدم التنبيـه عـلى الصغائـر لـه أثـرٌ إيجـابي كبـير عـلى الأبنـاء، لأن فيـه حفظًـا لمشـاعرهم وإعطائهـم الفرصـة لإصـلاح أخطائهـم دون إحـراج لهـم، ومـا يتضمنـه هـذا الأسـلوب مـن كسـب ثقتهـم بأنفسـهم.

إن التركيـز عـلى الخطـأ وتجاهـل السـلوك الإيجـابي لَهـو خطأ تربـوي آخـر شـائع، فـلا بـد مـن التشـجيع والمديـح للإيجابيـات، والنصـح والإرشـاد والتنبيـه عـلى السـلبيات، وعنـد معالجـة السـلبيات ينبغـي التركيـز عـلى الخطـأ الحـالي وتجنـب ذكـر الأخطـاء السـابقة، كـما يحبـذ أن يكـون التركيـز عـلى الاسـتفادة مـن الخطـأ ومـا ينبغـي فعلـه لعـدم تكـراره مسـتقبلاً.

ختامـاً أقـول إن التغافـل يقـود الأبنـاء إلى اكتسـاب الأخـلاق الحميـدة والآداب الحسـنة وتبنـي السـلوك القويـم طواعيـةً وعـن طيـب نفـس، مـع إبقـاء معنوياتهـم عاليـة؛ ويـدرك المـربي الناجـح

سر هـذا الأسـلوب التربـوي الراقـي -ضمـن ضوابطـه الصحيحـة- لنتائجـه الإيجابيـة المحمـودة.

التغافل مع الأصدقاء

قال -صلى الله عليه وسلم-: لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه[1]، فالتغافل عن زلاّت وعيوب الأصدقاء رفعٌ للحرج عنهم، وهذا ما تحبه لنفسك فلابد أن تحبه لأخيك، واعلم أنّ من عيَّر إنساناً أوعابه، يقع غالباً في نفس العيب أو الخطأ، فكريم النفس يتغافل عن عيوب وأخطاء أصدقائه ويتجاهلها، ويبرز حسناتهم ويظهرها، ولئيم الطبع من يتصيد تلك العيوب والأخطاء ويتجاهل الحسنات، فهو كالذباب لا يقع إلا على الجرح.

ثم إنك إن ذهبتَ تدقّق خلف كل جملة، وتمحّص كل مقولة، أو ذهبتَ تحاسب كل من أساء، وترد على كل من هجاك؛ فأحسن الله عزاءك في صحتك وراحتك واستقرار نفسك وهدوء بالك.

قال عالم الأمة بالحلال والحرام معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: إذا كان لك أخٌ في الله تعالى فلا تمارِه، ولا تسمع فيه من أحد، فربما قال لك ما ليس فيه فحال بينك وبينه[2].

فالوقاية خير من العلاج، وراحة النفس بالصد أسهل من

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم ١٣.

(٢) بهجة المجالس وأنس المُجالس، ابن عبد البر، الجزء الأول، ص ٨٨.

مجاهدتها ومعالجتها بعد ورود الخواطر وإساءة الظن والوقوع في وحل الشكوك، فمن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض زلاته وأخطائه مات وهو عاتب.

ربما رأيت من صديقك بعض ما لا يعجبك، أو شيئاً لم تتوقعه من قولٍ أو فعل، وربما بدرت منه زلة أو خطأ، أو سوء خلق أو غير ذلك، فالأمر سهل يسير على صاحب النفس الكريمة، فما عليك إلا التغافل فإن الأزمة تمر، وتعود المياه إلى مجاريها، وتدوم المودة بإذن الله.

ورد في شعب الإيمان عن الإمام جعفر بن محمد قال: إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذراً واحداً إلى سبعين عذرًا، فإن أصبته؛ وإلاَّ فقل لعلَّ له عذراً لا أعرفه[1].

(١) شعب الإيمان، البيهقي، الجزء السادس، ص ٣٢٣.

الخاتمة

التغافل أدب عظيم، وخلق شريف؛ تأدب به الحكماء والعقلاء، ونوَّهَ بفضله العلماء قديماً وحديثاً، له شواهد في القرآن والسنة وسير الكرام؛ فالإغضاء والتغافل وعدم البحث عما خفي، ينبغي أن يكون سمةً عامة لتعامل المسلم مع الجميع بضوابطه التي أشرت إليها سابقاً.

صحيح أن المؤمن كيّس فطن، يدرك الأمور ويعرفها، لكنَّ عنوان الكياسة والفطنة وحسن الخلق، هو ألا يتقصى الأمور إلى نهايتها، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها من شيم الكرماء والعقلاء من الناس.

إن من الحكمة أن يغمض الواحد منا عينيه عن بعض الأمور رغم إدراكه لها، لما قد يترتب على التفتيش والتدقيق وعدم التغافل من مساوئ أعظم من الأمور نفسها، قال الأعمش -رحمه الله تعالى-: التغافل يطفئ شراً كثيراً، وقال بعض الفضلاء: تناسَ مساوئ الإخوان تستدِم وُدَّهم.

ختاماً أقول: لزاماً على صاحب المروءة، ومن أراد الارتقاء بأخلاقه، والعلو بمنزلته عند الله وعند الخلق؛ أن يتغافل ويتجاوز عن كثير مما يقع من أخطاء وزلات قد تصدر عمن يتعامل معهم أو يعاشرهم، من أهلٍ أو أصحابٍ أو إخوان، أو عمن هم تحت يده، من ولدٍ أو خدمٍ أو نحوه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أدب التغافل أدبٌ عظيم، وخلقٌ كريم، وُصِفَ بأنّهُ خُلُقُ الكرام؛ مَن تحلّى به رُزِقَ راحة النفس، وسلامة الصدر، وطيب العيش، وكان محبوباً ممن حوله، وهو دليل على علو همة صاحبه، خلاف الذي يقف عند كل كلمة، ويرد على كل خطأ، ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة، فهو أكثر الناس شقاءً، وأشدهم نكداً، قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- (مَن لم يتغافل تنغّصت عيشته).

أدب التغافل